

قراءة نقدية تاريخية تحليلية في كتاب مذكرات خير الدين بربروس.
A critical historical and analytical reading in the book Memoirs
of Khairuddin Barbarossa.

نمير حسين ♦ ، بوجلال قدور²

جامعة محمد خيضر بسكرة ، ¹Hocine.nemir@univ-biskra.com

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر ، ²boudjellal.kadour@univ-mascra.dz

تاريخ الإرسال: 2024 / 09 / 01 ؛ تاريخ القبول: 2024 / 10 / 09 ؛ تاريخ النشر: 2024 / 12 / 01

الملخص باللغة العربية:

يعتبر كتاب مذكرات خير الدين بربروس من أهم مصادر التاريخ التي عنت بدراسة البدايات الأولى للتواجد العثماني بإيالة الجزائر، فهو بحق موسوعة علمية تراثية محلية أزالت الغموض عن العديد من الحقائق التاريخية، ولأجل هذا جاءت هذه الدراسة لإبراز الدور الذي ساهمت فيه مذكرات خير الدين في إزالة الغموض على هذه الفترة في غياب الكتابات المحلية. ومحاولة معرفة الفترة الأولى من التواجد العثماني في الجزائر، وإظهار الصورة والكيفية التي تم إلحاقها بالدولة العثمانية. مع محاولة مقارنة ما جاء في الكتابات الغربية ومذكرات بربروس، ناهيك عن إبراز المعلومات التي ينفرد بها هذا المصدر عن بقية الكتابات الأخرى.

الكلمات المفتاحية: كتاب؛ مذكرات؛ خير الدين؛ إيالة الجزائر؛ الاسبان.

Abstract: The book of Khairuddin Barbarossa's memoirs is one of the most important sources of history that was concerned with studying the early beginnings of the Ottoman presence in the Eyalet of Algeria, as it is truly a local heritage scientific encyclopedia that removed the mystery of many historical facts, and for this reason this study came to highlight the role that Khairuddin's memoirs contributed to removing the mystery of this

♦ نمير حسين

period in the absence of local writings. And trying to know the first period of the Ottoman presence in Algeria, and to show the image and how it was attached to the Ottoman Empire, while trying to compare what was mentioned in Western writings and Barbarossa's memoirs, not to mention highlighting the information that is unique to this source from the rest of the other writings.

Keywords: Book; Memoirs; Khairreddine; Eyalet of Algeria; Spaniards.

مقدمة:

لا يزال البحث في تاريخ الجزائر المحلي يفتح آفاق واسعة أمام الباحثين الجزائريين بالنظر إلى مواضيع عديدة التي لا تزال بكرة، ولم تخضع بعد إلى الدراسة السطحية منها أو المعمقة، ولا يجب أن نفهم من هذا أن خوض غمار البحث في التاريخ المحلي يعد سبيلا سهلا أو مغريا، إنما هو مسلك وعمر وصعب يفرض على أبحاث تحاشي السطحية والانزلاق وراء تواجد الكتابات الأجنبية، والتي تعد رغم ذلك المصدر المرجعي في ظل غياب الكتابات والدراسات المحلية المتعلقة بالجزائر خاصة أثناء التواجد العثماني فيها. والذي يعد من أهم فترات تاريخ الجزائر، ذلك أنه دام مدة طويلة تزيد عن ثلاثة قرون، حيث اكتسبت فيها إيالة الجزائر طابعا خاصا في ظل الحكم الإسلامي، ولعبت دورا كبيرا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وفي إدارة العلاقات الدولية.

ولكن الإشكال الذي أصبح يطرح اليوم هو قلة الكتابات التاريخية المحلية فيما يتعلق في البدايات الأولى للتواجد العثماني في الجزائر، والتي يحاول الغرب تشويهها مستغلين غياب الكتابات المحلية، بأنها مرحلة فراغ سياسي وركود وأنه احتلال عثماني، وفي هذا الصدد يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: " قليلة هي الأخبار التي تحدثت عن سير حكام الجزائر خلال العهد العثماني وقليل هم أولئك الحكام الذين ظفروا بعناية الكتاب المعاصرون لهم فخلدوهم في كتاب أو في قصيدة ولولا الأخبار التي وردت عن خير الدين وأخيه عروج في كتابه لما عرفنا عنهما إلا أسماءهما". (أبو القاسم، 1990، صفحة 321).

على ضوء هذه المقولة وما سلف ذكره، جاءت هاته الدراسة التحليلية النقدية لهذا الكتاب، الذي هو على شكل مذكرات بغية إبراز الدور الذي ساهمت فيه مذكرات خير الدين في إزالة الغموض على هذه الفترة في غياب الكتابات المحلية. ومحاولة معرفة الفترة الأولى من التواجد العثماني في الجزائر، وإظهار الصورة والكيفية التي تم إلحاقها بالدولة العثمانية. مع محاولة مقارنة ما جاء في الكتابات الغربية ومذكرات بربروس. ناهيك عن إبراز

المعلومات التي ينفرد بها هذا المصدر عن بقية الكتابات الأخرى. ومن هنا نطرح الإشكالية التالية :

إلى أي مدى ساهمت مذكرات خير الدين بربروس في إزالة الغموض عن البداية الأولى للتواجد العثماني في الجزائر ؟ وما هي المعلومات التي انفرد بها عن باقي الكتابات الأخرى سواء كانت محلية أو أجنبية ؟ وبدورها الإشكالية يتفرع عنها مجموعة من الفرضيات لعل أبرزها: ما هي أسباب ودوافع تأليف هذا الكتاب ؟ أكانت بمبادرة شخصية منه ؟ أم بأمر من السلطان ؟ وإن كانت بإيعاز منه هل طغت عليها الذاتية أم الموضوعية ؟ وإن كانت بأمر من السلطان هل أثر ذلك في كتابته لهذه المذكرات ؟ إلى مدى ساهمت البيئة التي نشأ فيها خير الدين على تدوينه للحقائق التاريخية ؟.

1- قراءة نقدية تحليلية للكتاب:

1.1- أصل تسمية مذكرات خير الدين بربروس:

منذ الوهلة الأولى لمن يتمعن في عنوان الكتاب، يتبادر له جليا في ذهنه أن المؤلف ينقسم إلى شطرين هما:

- مذكرات : أي ما يرويه شخص خطيًا من أحداث شهدها بنفسه أو تتعلق بسيرته ، وحياته العامة أو الخاصة.

- خير الدين : أما اسم خير الدين فقد سماه به مسلمي الأندلس لما أراد أن ينقدهم من عذاب النصارى ونقلهم إلى السواحل الجزائرية، وهناك من يرى أن السلطان سليمان القانوني هو الذي سماه بهذا الاسم حينما قال له : "أنت من خيرة أبناء البلاد وقد سميتك خير الدين". وقد ورد اسمه في المراجع إلى عدة أوجه منها، حيث عند الكثير من المؤرخين المشاركة ورد باسم خضر ، وعند المغاربة خسرف، كما ورد اسم خزر وكذلك خذر ، وأصل هذا الاختلاف راجع إلى الترجمة (متولي ، 2002 ، صفحة 250)

بربروس : تعني اللحية الشقراء أو الصهباء التي تميل إلى الحمرة (العسلي ، 1980 ، صفحة 27).

2.1- أسباب ودواعي التأليف:

لقد ذكر خير الدين في مذكراته الدافع الرئيسي الذي جعله يدون هذا التأليف بقوله: "أثناء اتصالي بالسلطان سليمان خان بن سليم خان ، ورد علي فرمان سلطاني : "كيف خرجت أنت وأخوك عروج من جزيرة ميدلي وفتحتم الجزائر ؟ وما الغزوات التي قمتم بها

في البر والبحر حتى الآن دون كل هذه الحوادث بدون زيادة أو نقصان في كتاب وعندما تنتهي أرسل إلي نسخة لأحتفظ بها في خزانتي" (مجهول ، 2010 ، صفحة 20).

3.1- أوضاع المشرق العربي الإسلامي:

عرفت الدولة العثمانية بداية من القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي علاقات سليمة مع الدول الأوروبية وفي نفس الوقت تأزمت علاقاتها مع دول العالم الإسلامي، كالدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام ، والدولة الصفوية الناشئة في إيران .

1.3.1- الدولة الصفوية ودخولها في صراع مع العثمانيين :

بعد ظهور الدولة الصفوية وتبنيها استراتيجية تهدف لزعة البنية الداخلية للدولة العثمانية، تحولت استراتيجية هذه الأخيرة نحو آسيا الوسطى. وعلى العموم فإن ظهور الدولة الصفوية وتمركزها في موقع وسطي بين الدول الإسلامية الثلاث العثمانية والمملوكية والأوزبك (القرماني أحمد، 1992، الصفحات 121- 123) ، شكل حاجزا سياسيا بين العثمانيين وبين أصولهم الشرقية (درويش، 2013، الصفحات 111- 112) ومما زاد في تدهور العلاقة بينها تدخل الصفويين في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، من خلال مساندة الشاه إسماعيل للأمير أحمد الأخ الأكبر للسلطان سليم الأول خلال صراعهما على السلطة، وإواءه للأمير مراد بعد هزيمته أمام عمه سليم الأول وتحريضه عليه. (عزلتو، 1995، صفحة 57).

وقد كان لتوسع الصفويين في الأراضي العثمانية من خلال بث المذهب الشيعي، آثاره الواضحة لزعة أوصل الدولة العثمانية السنية (طقوش، 2009، صفحة 73) كل هذه الأسباب أدت إلى نشوب حرب بين الطرفين ، حيث سار السلطان سليم الأول على رأس الجيوش العثمانية التي يفوق تعدادها 120.000 جندي مجهزين بعدة حربية متطورة (السيد، 2005، صفحة 42) ، من مدينة أدرنة في (22محرم 920هـ/19مارس 1514م) إلى آسيا الوسطى لمواجهة الصفويين (أوزتونا، 1988، صفحة 343) واستمر العثمانيون في الزحف نحو الصفويين، حيث توجهت الجيوش نحو تبريز، وفي أثناء ذلك ظهرت الجيوش الصفوية التي سعت إلى جر العثمانيين إلى مواجهة مباشرة.

وفي رجب 920هـ/23أوت 1514م (وقعت معركة بوادي تشاديران (فريد بك، 1981، صفحة 190) شمال شرق أذربيجان وانهزم الصفويين أما العثمانيون، ومن خلال هذه الانتصار استطاعت الدولة العثمانية من أن توقف مد نفوذهم في المنطقة لمدة تسعة عشرة سنة، وأحدث ذلك تغييرا وضحا في طبيعة الحدود السياسية بين الدولتين، حيث

أصبح المجال منفتحاً أمام العثمانيين لإخضاع الأقاليم المتبقية (دحدح ، 2014 ، صفحة 116).

1.3.2- دولة المماليك :

بلغت الدولة المملوكية آخر مراحل وجودها خلال عهد السلطان سليم الأول ، ولما تداعت الأسباب أمام هذا الأخير ، قرر مواجهتها في مصر وبلاد الشام . ومع بداية القرن السادس عشر ميلادي أخذت الدولة المملوكية في الضعف والانهيار ، في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة العثمانيين ما أثار مخاوف المماليك ، فسعت لإضعافها داخليا مستغلة الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة بتحريض الأمراء على اللجوء إلى أراضيها وإيواء الفارين منهم (متولي ، 2002 ، صفحة 196) كأبناء أحمد أخ السلطان حيث وعدهم بتقديم المساندة للعثمانيين في حربهم مع الصفويين تخوفا من انتصار الدولة العثمانية ، وظهرت مخاوف السلطان المملوكي قانصوه الغوري (الشافعي العاصمي ، 1998 ، صفحة 61) جليا بعد انتصار الدولة العثمانية في معركتها مع الصفويين .

وجه السلطان سليم الأول القوات العسكرية (1514-1515م) لإخضاع إمارة البستان فضمها لممتلكات الدولة العثمانية بعدما كان المماليك سادة على هذه الإمارة (متولي ، 2002 ، صفحة 127) عمد السلطان المملوكي إلى تجنب الحرب وتأخيرها مع العثمانيين نظرا للأوضاع المتدهورة سياسيا واقتصاديا ، والتي كانت تمر بها الدولة المملوكية بفعل القوى المناهضة لها في مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية ، ولاسيما الزحف البرتغالي في البحر وفي المحيط الهندي ، إلا أن السلطان سليم الأول أصر على خوض الحرب في حالة رفض السلطان المملوكي الخضوع له (طقوش ، 2009 ، صفحة 166)

ما دفع هذا الأخير إلى تجهيز جيشه استعدادا للحرب المتوقعة (الاسكندري و سليم ، 1996 ، صفحة 03) وفي نفس الوقت عقد تحالف مع الشاه إسماعيل الصفوي ضد العثمانيين ، الأمر الذي عجل الحرب وجعلها واقعا فيما بين القوتين العثمانية والمملوكية (كمال بن حسن ، 1923 ، صفحة 244) استطاع السلطان العثماني تحقيق مساعيه في تحديد الزمان ومكان المعركة إذ التقى الجيشان في سهل مراح دابق (الحيمدي محمد ، 1984 ، صفحة 231). قرب حلب ، فدارت معركة طاحنة في 25 رجب 922هـ/23 أوت 1516م (الشافعي العاصمي ، 1998 ، صفحة 82) أسفرت هذه المعركة عن انتصار العثمانيون على حساب المماليك ، دخل السلطان سليم الأول مدينة حلب دون مقاومة تذكر ، وخطب له في صلاة الجمعة فمكث فيها ثمانية عشر يوما نظم فيها شؤون هذه المدينة وما حولها (الحلي محمد ، 1986 ، الصفحات 254-257).

استمر العثمانيون في زحفهم جنوبا صوب دمشق إلى أن وصلوا إلى مدينة حماة ودخلوها في شعبان (922هـ/19 سبتمبر 1516م) ، ثم استولوا على مدينة حمص في (أواخر شعبان 922هـ/22 سبتمبر 1516م)، وفي (أواخر شعبان 922هـ/27 سبتمبر 1516م) فتحت مدينة دمشق أبوابها للسلطان العثماني، وبذلك بسط سيطرته على كامل بلاد الشام. (الاسكندري وسليم، 1996، صفحة 07)

1.3.3- ضم العثمانيين لمصر :

سعت الدولة العثمانية بعد ذلك من أجل ضم مصر، حيث أن طموح السلطان سليم الأول في توحيد العالم الإسلامي تحت الراية العثمانية ، دفعته لضم مصر ، فعرض على السلطان طومان باي (عبد الله، 1996، الصفحات 223-224) قائلا : " ...وان أردت أن تنجوا من سطوة .. فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة ، تكون نائبا عنا في مصر ... " (محمد بن أحمد ابن اياس، 1984، صفحة 125). وذلك تقاديا للحرب، الأمر الذي رفضه طومان باي ، بل بدأ يعد العدة استعدادا للمواجهة فاستطاع خلال مدة قصيرة ، وفي ظل الظروف الصعبة للدولة المملوكية من إعادة تنظيم التشكيلات العسكرية، وتزويدها بالعتاد الحربي، وأقام التحصينات حول القاهرة (طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923 هـ/1250-1517م)، 1997، صفحة 503).

في أثناء ذلك استمر زحف الجيوش العثمانية نحو الجنوب فاستولوا على طرابلس وصعد من غير مواجهة وقلعة القدس الشريف ومدينة غزة (محمد بن أحمد ابن اياس، 1984، صفحة 152) فاخترقوا غرب سيناء، وفي طريقهم التقى الجيشان في 29 ذي الحجة 922هـ/22 جانفي 1517م بالريدانية وتمكن العثمانيون فيها من محاصرة المماليك (محمد بن أحمد ابن اياس، 1984، صفحة 146)، واستطاعوا العثمانيون دخول القاهرة في 03 محرم 923هـ/28 جانفي 1517م أين حدثت مواجهة شرسة بين القوتين دامت ثلاثة أيام انتهت باستسلام المماليك، وقد فر طومان باي نحو الشمال ثم بعد ذلك وقع في أسر السلطان العثماني (بروكلمان، 1968، صفحة 448)

وهكذا تمكن السلطان سليم الأول من القضاء على دولة المماليك بقتل آخر ملوكها طومان باي في 21 ربيع الأول 923هـ/13 أفريل 1517م (فريد بك، 1981، صفحة 193) الأمر الذي فتح أمامه المجال للتوسع على حساب شبه الجزيرة العربية وحماية الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز ، والتصدي للبرتغاليين على سواحل هذه المنطقة (بيوض، 1991، صفحة 39). وبهذا التوسع اكتسبت الدولة العثمانية ثقل سياسي وزعامة دينية،

حيث لقب السلطان سليم الأول بخادم الحرمين الشريفين والذي أضفى عليها الزعامة الإسلامية إلى جانب الثقل السياسي .

1.4- الأوضاع العامة للمغرب العربي :

كان المغرب العربي مع مطلع القرن (10هـ/16م) يمر بمرحلة من الانحطاط والفوضى السياسية ، نتيجة للصراعات و الانقسامات الداخلية ما أتاح للقوى الاسبانية التطلع لبسط سيطرتهم على سواحل المغرب الإسلامي ، وأمام هذه الظروف بدأت الجزائر تتطلع لقوة تحميها من هذا الخطر .

بعد سقوط دولة الموحدون (عبد الفتاح ، 1994 ، صفحة 14) وتفككها دخل المغرب الإسلامي في مرحلة سيئة من نزاعات وتطاحنات إقليمية (احمد بن خالد ، 1954 ، صفحة 210) التي أدت إلى ظهور ثلاث دويلات (الحفصية بتونس (محمد بن ابي القاسم ، 1286 ، صفحة 96)، الزيانية (سلامة ، 2001 ، الصفحات 07- 10) بالجزائر، المرينية بالمغرب الأقصى (ضيف ، 1995 ، الصفحات 286- 287))، حيث سعت كل دولة من هذه الدويلات السيطرة على المغرب الإسلامي ما أدى إلى دخولهم في صدام (عبد الفتاح ، 1994 ، صفحة 14 ، 18).

كان المغرب الأوسط (الجزائر) المتضرر الكبير من هذا الصراع بحكم توسطه الذي كان بين الحفصيين والمرينيين المتصارعين فيما بينهم إذ اعتبروا الحفصيين أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين ، وأما المرينيين سعوا إلى توحيد المغرب الإسلامي تحت لوائهم (عبد الفتاح ، 1994 ، صفحة 112).

نتج عن هذا الوضع فوضى وانحلال ودخلت هذه الدويلات في حروب طويلة المدى ، وكان الزيانيون أحيانا يخضعون للمرينيين وأحيانا يلجئون للحفصيين حسب ظروفهم ومصالحهم السياسية ، لكن ما أدى إلى إضعاف الدولة الزيانية أكثر هو الفراغ السياسي الناتج عن الصراع الذي كان يدور بين أفراد البيت الزياني حول العرش .

ونتيجة لغياب سلطة مركزية موجودة دخلت هذه الدولة في حالة من الفراغ السياسي الأمر الذي استغله الاسبان لاحتلال سواحل المغرب العربي عامة والجزائر خاصة (ضيف ، 1995 ، صفحة 43 ، 286).

1.5- الأوضاع العامة في الأندلس :

بعد سقوط غرناطة (02جانفي 1492م) عمل الاسبان على طرد المسلمين من الأندلس وتنصريهم في اطار حرب الاسترداد ، بدعم من الكنيسة التي طبقت عليهم

سياسية التنصير (بشتاوي، 2001، صفحة 12، 16) وفي أثناء هذه الظروف الصعبة اضطر المسلمون بالأندلس إلى هجر أوطانهم وترك ممتلكاتهم وطلب النجدة من بلدان المغرب الإسلامي الذين استقبلوهم ورحبوا بهم رغم الأزمات السياسية الحادة التي كانوا يمرون بها (ألتر، 1989، صفحة 18) فتوافد عدد كبير من مهاجري الأندلس خاصة نحو الجزائر، بهذا وضعت اسبانيا محاكم التفتيش لتعقب الأندلسيين الفارين بدافع تصفية النفوذ الإسلامي نهائيا من شبه الجزيرة الأيبيرية واحتلال سواحل المغرب الإسلامي، فقد تركت الملكة إيزابيلا بعد وفاتها وصية لزوجها فرديناند (حتامله، 1980، صفحة 14، 16) تدلي فيها بضرورة مواصلة الحرب ضد المسلمين في سواحل المغرب العربي، ومن هذا المنطلق واستجابة لوصيتها بدأت التحرشات الاسبانية على سواحل الجزائر (عبد الحي، 1986-1987، الصفحات 33-35).

لم يكتف الاسبان بإسقاط آخر معقل للمسلمين ومطاردتهم بل استغلوا ضعف وتفكك بلدان المغرب الإسلامي لاحتلال سواحله مطبقين وصية الملكة إيزابيلا في مواصلة الحرب ضد المسلمين (مبارك محمد، 1964، الصفحات 20-21).

لهذا شرعت اسبانيا في تجهيز حملاتها الصليبية على السواحل الجزائرية منذ اتفاقية توردي سلاس فكان المرسى الكبير الهدف الأول للحملات الاسبانية. (وليام، 2006، صفحة 34) باستمالة أعوان لهم من الداخل لتسهيل تثبيت وجودهم في هذه المنطقة وتشتيت انتباه أفراد بني زيان المتصارعين على السلطة، فبث الشقاق بينهم أكثر حتى تمكنوا من استمالة الأمير يحيى الثابتي وتدعيمه بقوة عسكرية لمواجهة عمه أبي حمو الثالث، وبهذا استطاعت الاسبان السيطرة على تنس دون أي مقاومة تذكر سنة 1507م. واستمرت اسبانيا في شن حملاتهم على المدن الساحلية واحتلوا مدينة وهران سنة 1509م وبجاية 1510م. (فكاير، 2012، صفحة 54)

في هذا الوقت كان البحر الأبيض المتوسط مسرحا لانتصارات مدوية يحرزها أربعة إخوان من أصل أحد الجزر اليونانية والتي بلا شك هي جزيرة ليسوس، وكان يميز هؤلاء الإخوة الشجاعة ومعرفة علوم البحر، وبعد دخولهم الإسلام وضعوا أنفسهم تحت خدمة سلطان اسطنبول، حيث كانوا يقومون بحملات جريئة على شواطئ اسبانيا قصد مساعدة مسلمي الأندلس على الهروب من هذه الجزيرة، وكانوا يملكون حوالي عشرة سفن أين اتخذ خير الدين من جزيرة جربة قاعدة عسكرية له وجمع فيها المتطوعين، وأعد فيها السفن وباشر من هناك نشاطه الجهادي وسرعان ما أشهر اسمه في عمليات الجهاد البحري ضد الغارات الاسبانية. (شوفالييه، 2007، صفحة 20)

2- التعريف بالمؤلف:

اختلف المؤرخون في أصل خير الدين بربروس فمنهم من يرى أن أصله يوناني ثم اعتنق الإسلام مثل إخوته عروج والياس وإسحاق ومثل السكان الآخرين من جزر الأرخبيل (شوفالييه، 2007، صفحة 24)، (وليام، 2006، صفحة 29) وهذا ما ذهب إليه الكتاب الأوروبيين. وذلك راجع إلى أنه كانوا يهتمون بإبراز الأصل الأوروبي سواء يوناني أو إيطالي أو إسباني بهدف إبراز تفوق العنصر الأوروبي.

وهناك من يذهب إلى القول بأن أصل خير الدين من الأتراك المسلمين، حيث أن والده يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين الذين استقروا في جزيرة مدلي (أتر، 1989، صفحة 27) إحدى جزر الأرخبيل، وذلك بناءً على نقش موجود على رخامة كانت موضوعة على باب حصن شرشال مكتوب عليها هذا برج شرشال أنشأه المجاهد بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب بتاريخ 1518م، وهناك نقش آخر على رخامة أخرى كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة: اسم أروج بن أبي يوسف يعقوب التركي (المدني، 1976، صفحة 160).

أما جهة أمه فالغموض نفسه يحيط بأصله، فبعض المصادر تقول أن أمه كانت بنت أحد الرهبان الإغريق من مدينة مدلي التي كانت بها حامية تركية تزوجها يعقوب بن يوسف الذي كان بهذه الحامية فأنجبت له عروج وخير الدين وإسحاق والياس، وهناك من يرى أن أمه كانت امرأة أندلسية أسرها يعقوب بن يوسف ثم تزوجها. أما عن مولده فلا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عن تاريخ ولادتهم ولكن إسحاق ولد في عام 1462م، عروج 1464م، وخضر 1466م، ومن المحتمل أن تكون هذه التواريخ قريبة إلى الحقيقة (أتر، 1989، صفحة 27).

1.2- نشأته:

لقد كان يعقوب بن يوسف منخرطاً في الجيش العثماني المربط بمدينة مدلي التي تزوج فيها وأنجب أولاده ومنهم خير الدين الذي ولد بها ونشأ فيها، وفي وقت كان الصراع فيه على أشده بين المسلمين والنصارى في الشرق والغرب، حيث الأندلس تتهاوى في يد النصارى 1492م في الغرب. أما في المشرق فقد سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين، حيث اختار إلياس طريق العلم ودراسة القرآن والفقه، بينما الآخرون قد اندفعوا في طريق الجهاد واختاروا البحر ميداناً لهم في بداية أمرهم، حيث كان خير الدين وعروج يعملان في البحر لحسابهما الخاص، فكان يتعاطان مهنة التجارة (أتر، 1989، صفحة 28) ولكن إسلامهما المتن هو الذي حتم عليهم الجهاد البحري لإنقاذ المضطهدين في

الأندلس ثم تعز ز جهادهم بانضمامهم إلى الخلافة العثمانية (خوجة حمدان ، 1982 ، صفحة 107).

2.2- صفاته:

تميز خير الدين بمجموعة من الصفات لعل أبرزها:

الحلم والرفقة :

بالرغم من أن خير الدين كان شديدا على الكفار يمثل مصدرا لهللهم ، إلا أنه كانت تأخذه الشفقة على الذين يسقطون عنده من الأسرى فيعاملهم معاملة إنسانية فيوفر لهم المأكول والمشرب والملبس .

الحنكة السياسية :

لقد عرف عن خير الدين بحنكته السياسية وحسن التصرف في الأمور ، وكان يمتاز بهدوء أعصابه تجاه الأزمات التي كانت تواجهه ، أي أنه قبل قيامه بأي عمل كان يقوم بدراسته وفهم أبعاده ومحصلة نتائجه . فبعد ما قتل أخواه وخروج ابن القاضي عليه وقلة جيشه ، رأى أنه من الأحسن الدخول تحت حماية دولة تمده بالعون للوقوف في وجه الدولة الاسبانية من جهة ، والقضاء على المتمردين من جهة أخرى ، فأجمع علماء الأمة وطلب منهم أن يدخلوا في طاعة الدولة العثمانية (سعيدوني ، 2013 ، الصفحات 27-29).

3.2- وفاته:

لقد اختلف المؤرخين حول تاريخ وفاة خير الدين فمنهم من يقول أن خير الدين توفي في شهر جمادى الأولى 953هـ/ الموافق 16 يوليو 1546م ، ومنهم من يقول أن خير الدين توفي في شهر ماي سنة 1547م (المدني ، 1976 ، صفحة 317) الموافق لسنة 954 هلكتهم يتفقون في ذكر أنه مات في اسطنبول تاركا وراءه ولده الوحيد حسن (الزياني ، 2013 ، صفحة 183).

3- محتوى الكتاب:

يحتوي الكتاب على شكر وتقدير تليها مقدمة خاصة بالترجم ، حيث بين فيها النقاط التالية :

الأسباب التي دفعت المؤلف " خير الدين بربروس إلى تأليف الكتاب " ويؤكد المترجم أنه لم يتدخل في تغير المخطوط ، حيث يقول : وقد أثرت الإبقاء على هذه التعابير كما وردت في أصلها التركي لكي يتمكن القارئ من معايشة الأحداث وأجوائها المشحونة كما لوكان معاصر لها ، ولم أحاول التدخل في صياغتها أو التخفيف من خشونتها لكونها تعكس ثقافة العصر وذهنيته .

ويقول أيضا أنه لم يكن لي من الترجمة سوى نقل النص الأصلي بأمانة إلى القارئ العربي لينظر إلى الأحداث و الأشخاص والممالك التي كانت سائدة بنفس المنظار الذي كان ينظر به خير الدين بربروس ومن عاصره لأحداث ذلك العصر.ويقول أيضا التزمت منهاجا بأن لا أقوم بأي حذف أو زيادة أو تحويل للنص التركي أو التقديم أو التأخير .

أما فيما يخص العناوين الموجودة فهي لم تكن موجودة في النسخ المخطوطة وإنما قام الأستاذ يلمازأوزتونا بإضافتها تسهيلا للقارئ على فهم الأفكار الجزئية. كما يؤكد أنه لا يدري متى تم تاريخ تدوينه و لا المكان الذي يدل على وجود النسخة الأصلية ، إلى أنه موجود في عدة نسخ وهي متناثرة ما بين اسطنبول والفاتيكان وبرلين والقاهرة ومدرسد وباريس ولندن ، وأن نسخة الفاتيكان أقدم نسخة موجودة .

وقد ذكر المترجم أن الكاتب التركي يلمازأوزتونا قام بنشر الكتاب باللغة التركية وقام بتهذيبه ونشر لأول مرة في مجلة الحياة التاريخية التي كانت تصدر في اسطنبول في الستينيات من القرن الماضي ، ثم قام بجمعها ونشرها في كتاب مستقل سنة 1989م ، وقد قام بنشرها الكاتب التركي أرتوغرول 1975م تحت اسم : مذكرات خير الدين باشا ، ثم قامت بعد ذلك قيادة البحرية التركية بتهذيب ونشر سنة 1995م تحت اسم غزوات خير الدين باشا وقد تم إدخال وتصريف فيه مما افقده في قيمته .

كما أن المترجم يتأسف على سباق الباحثين الغربيين إلى اكتشاف هذه المذكرات في وقت مبكرا جدا بينما تأخر العالم العربي عامة والجزائر بصفة خاصة ، إذا أنه تسلط الضوء على الكثير من المحطات الغامضة في تاريخينا خلال المرحلة العثمانية وتجيب على العديد من التساؤلات التي أثارها الباحثون الغربيون .

إن القارئ للكتاب منذ الوهلة الأولى يتوقع أنه مجرد سيرة ذاتية يتحدث فيها خير الدين بربروس عن نفسه وعائلته وأولاده وحياته خاصة كما هو معهود في كتب السيرة الذاتية ، غير أن متصفح المذكرات يلاحظ خلوها بشكل شبه كامل من الإشارة إلى الأمور الشخصية والعائلية المتعلقة بخير الدين إلا مكان منها متعلقا بسير الأحداث التي عاصرها ، بل أن صاحب المذكرات يشرع مباشرة في سرد الأحداث التي جرفته وإخوته لاقترام

عالم الجهاد البحري ويستمر في سرد الأحداث وتطورها انطلاقا من جزيرة ميدلي مسقط رأس الإخوة بربروس ليتوقف قليلا في شبه جزيرة رودس ، حيث كان عروج راييس أسيرا عند فرسان القديس يوحنا ، لينتقل بعد ذلك إلى سلطان مصر ودخول عروج في خدمته قبل أن ينتهي به الأمر إلى الرسو في جزيرة جربة ، حيث يلتحق به أخوه خير الدين ، فيقران الاتصال بالسلطان الحفصي في تونس ، الذي أقنعه بأن يسمح لهما في الرسو في ميناء حلق الوادي ويتخذاه كقاعدة عسكرية لجهادهما على أن يدفعوا إليه خمس ما يحصلان عليه من الغنائم وييعا ما زاد عن حاجتهما في أسواق تونس .

ومن تونس تتلاحق عمليات الجهاد البحري ، لتبلغ ذروتها بالاستقرار في الجزائر وما رافقها من ثروات متتالية تولى قيادتها والتحريض عليها الزعماء المحليون بتحريض من الاسبان وسلاطين بني زيان في تلمسان وبني حفص في تونس . وخلال ذلك كان خير الدين بسرد بتفصيل دقيق غزواته البحرية ضد السفن والسواحل الاسبانية أو التابعة لها أو المتحالفة معها ، وكذا حملات الاسبان على المراسي الجزائرية .

ولم يغفل خير الدين الحديث عن تطور علاقاته بالدولة العثمانية ، وإعلان التبعية للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين ، وما واكب ذلك من تقارب في الرؤى والمواقف السياسية الأمر الذي أفضى إلى تتويج ذلك الولاء بتعيين خير الدين قائدا عاما للأسطول العثماني حاملا لقب قبطان داريا ، وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية فأثبت خير الدين أهليته وكفاءته العليا في قيادة الأسطول العثماني بتحقيقه انتصارا باهر في معركة بروز على السواحل الايطالية 1538م ، تلك المعركة التي كانت بين الأسطول العثماني والتحالف الصليب بقيادة البحار الجنوبي أندريا دوريا ، فكان من أثر ذلك الانتصار أن تمكن العثمانيون من فرض سيطرتهم على البحر المتوسط أكثر من ثلاثين عاما . وأسهب خير الدين في الحديث عن محاولة الإمبراطور شار لكان غسل عار هزيمته في بروز بتجهيز حملة كبيرة تحت قيادته لغزو الجزائر واحتلالها سنة 1541م مستغلا غياب خير الدين ، ليمن مرة أخرى بهزيمة منكرة على يد حسن باشا بن خير الدين الذي كان نائبا عنه في الجزائر .

هذه الهزيمة التي دفعت الملك الاسباني إلى اعتزال السياسة والاعتكاف في أحد الأديرة ليموت بعد ذلك ببضعة أشهر من شدة القهر حسبا أشار إلى ذلك خير الدين في مذكراته ، بعد هذه الحملة بقليل تتوقف المذكرات تقريبا عند سرد الحوادث التي تلتها ، لأن خير الدين كان قد عاد إلى اسطنبول ولم يرجع إلى الجزائر سوى مرة واحدة وذلك سنة 1542م ليقود منها حملة بحرية على فرنسا إلا أنه لم يشير إليها في مذكراته لأنه كان قد فرغ من املائها حسبما يبدو .

4- أهمية الكتاب وقيّمته التاريخية:

- لاشك أن هذه المذكرات تعد في غاية الأهمية من حيث قيمتها التاريخية بحيث :
- أنه يعتبر مصدرا أصليا وأساسيا لتلك المرحلة ، فهي شهادة حية للقائد خير الدين الذي عاش الحدث وساهم في صنعه بنفسه ، وساهم في صناعة قرارات الحرب والسلم بين الدولة العثمانية واسبانيا ومن حالفهما من الممالك الأوروبية.
 - اشتماله على معلومات تاريخية تعد نادرة جدا ولا تكاد توجد في غيرها من المصادر العربية أو التركية أو الأجنبية التي أرخت لتلك المرحلة ، فمنها على سبيل المثال : " تلك التي يتحدث فيها عن رغبته في غزو أمريكا واستئذانه للصدر الأعظم إبراهيم باشا في ذلك عندما قابله في حلب. (مجهول ، 2010 ، صفحة 168) ضف إلى ذلك تهكم أندريا دوريا حينما علق على محاولته احتلال الجزائر بقوله بأنه واهم في ظنه أن الجزائر مثل العالم الجديد ، وأنه بإمكانه أن يبيد الجزائريين ويقضي على الاسم مثلما فعل أسلافه مع الهنود الحمر ، مما يعطى للقارئ انطبعا بأن خير الدين كان على درجة بالمجازر التي اقترفها الاسبان في أمريكا.
 - اشتملت المذكرات أيضا على بيان أحد أهم أهداف حروب الدولة العثمانية ضد اسبانيا : " وهي رغبة السلطان سليمان القانوني في غزو اسبانيا وفتحها من جديد " (مجهول ، 2010 ، صفحة 207) حيث في هذا الموضوع قبل أن يغير رأيه ويستبدله بتعيين خير الدين بربروس قائدا عاما للأسطول العثماني.
 - تفنيد خير الدين لمقولة الباحثين الغربيين المتمثلة في أنه فرض نفسه حاكما وسلطانا على الجزائر ، حيث يقول : " إنما قبل ولاية الجزائر بناء على توسلات ملحة وعديدة من أعيان وعلماء مدينة الجزائر وغيرها ممن كانوا يرسلون إليه الوفود يرجونه أن يقدم عليها ويتولى إدارتها بنفسه " (مجهول ، 2010 ، الصفحات 119-120).
 - وهذه الشهادة كافية بلاشك لتخرس تلك الأصوات التي لم تتوقف عن ترديد دون خجل الاستعمار التركي للجزائر.
 - الكتاب مرآة للعصر الذي كتب فيه بقيّمته ومفاهيمه وطبيعة العلاقات التي كانت تربط الناس.

5- بعض الملاحظات العامة عن الكتاب:

تميزت لغة الكتاب بسهولة وذلك راجع إلا أن خير الدين بربروس لم يكن شاعر أو أديب أو مفكر ، و إنما كان مجاهد ، وكانت تميل إلى العامية يستعمل بعض الألفاظ مثل : " الطاغية " ويقصد بها ملك اسبانيا ، وكذا كلمة الملاحين والكفار ويقصد بها النصارى

وسمى جيش خير الدين " جماعة الغزاة ". كما يستعمل عامية مثل : تقاول " أي تفاعل كما أورد في كتابه بعض الألفاظ التركية مثل صمصوم : وهو نوع من كلاب الصيد. أما الأسلوب فهو سردي إخباري بسيط يمدح فيه خير الدين جيشه ويذم الاسبان ، ويستعمل المقابلة كثيرا حيث يقابل صورة جيشه خير الدين مع صورة جيش النصارى قبل بدء المعركة بينهما ، يذكر الخبر أو أحيانا لا يحدد الأشخاص الذين يذكركم بأسمائهم بل يكتفي بوظيفتهم فقط كأن يقول السلطان الحفصي مثلا دون أن يذكر اسمه أو يذكر صاحب تلمسان دون تحديد من هو ؟.

الخاتمة:

من خلال دراستنا للمصدر توصلنا إلى النتائج التالية :

إن تطور الأحداث في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي أفزرت وضعا جديدا تمثل في اختلال موازين القوى بين الشرق والغرب ، بين الشرق الذي كانت تمثله الدولة العثمانية حاملة لواء الإسلام وبين دولة اسبانيا حاملة لواء المذهب الكاثوليكي.

أن وضع العالم العربي سواء في المشرق أو المغرب كان يعيش حالة من الفوضى والركود ، ففي المشرق وصلت دولة المماليك إلى حالة من الفوضى والركود والإعياء الشديد خاصة بعد معركة ديو 1509م ، أما المغرب الإسلامي فقد كان هو الآخر يعيش حالة من الضعف سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية ، فالداخل كان يعيش التمزق السياسي على إثر سقوط الدولة الموحدية وانقسامه إلى ثلاثة دويلات (الحفصية بتونس ، الزيانية بالجزائر ، المرينية في المغرب) ، وقد كانت هذه الدويلات تتصارع فيما بينها من أجل الطمع في توسيع حدودها ، كما كان الوضع الخارجي مأساوي على إثر سقوط آخر معاقل المسلمين في غرناطة 1492م ، والذي أفرز عنه ظهور التحرشات الاسبانية على سواحل المغرب الإسلامي.

إن البيئة التي نشأ فيها خير الدين بربروس قد عكست وأثرت كثيرا في تدوينه للحقائق التاريخية ، فالقارئ لكتاب خير الدين بربروس يشعر بالقوة التي وصل إليها إخوة بربروس ، أين جعلته يعكس تلك الروح في تدوينه لمذكراته ، ونلاحظها خاصة عندما يصف المعارك التي كانت تدور بينه وبين الاسبان .

أن مذكرات خير الدين بربروس تعد مصدرا تاريخيا مهما في البداية الأولى للتواجد العثماني في الجزائر ، فهو يرسم لنا صورة واضحة عن تلك الفترة .

تميز كتاب خير الدين بالسهولة والسلاسة، حيث أن القارئ لمذكرات خير الدين بربروس لا يجد صعوبة في التعامل معها، وذلك راجع إلى أن خير الدين بربروس لم يكن شاعر ولا أديب ولا مفكر، وإنما كان مجاهدا ينتظر إما الشهادة أو النصر على أعداءه.

انفراد مذكرات خير الدين بربروس بمعلومات هامة حول الأوضاع التي كانت سائدة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خصوصا محاولة خير الدين بربروس غزو أمريكا، وكذلك إثبات آل بربروس أنهم لم يفرضوا أنفسهم على السكان المحليين في تثبيت وجودهم وإنما كان يباعز من العلماء والمشايخ، فاستقر في جيجل وليس كما يدعي الغرب بأنه فرض نفسه عليهم.

مساهمة خير الدين بربروس في الحفاظ على الاستقرار في الجزائر وإعادة ترتيب البيت من جديد، والتخلص من الزحف الاسباني والتمردات المحلية.

الهوامش والمراجع:

المراجع:

1. ابن اياس محمد بن أحمد ابن اياس. (1984). بدائع الزهور في وقائع الدهور (المجلد 5). مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. ابن محمود الحلبي محمد. (1986). العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك. دمشق: دار الفكر.
3. أحمد توفيق المدني. (1976). حرب الثلاثمائة السنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م . الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .
4. أحمد فؤاد متولي. (2002). تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي. مصر: ايتراك للنشر والتوزيع .
5. آصاف يوسف عزلتو. (1995). تاريخ سلاطين بنى عثمان منذ نشأتهم حتى الان. القاهرة: مكتبة مدبولي.
6. البالي الغزي كمال بن حسن. (1923). نهر الذهب في تاريخ حلب (المجلد 3). حلب: المطبعة المازنية.
7. بسام العسلي. (1980). خير الدين بربروس والجهاد في البحر (1470-1574م). بيروت: دار النفائس.
8. بن عبد المنعم الحميدي محمد. (1984). الروض المعطار في خبر الاقطار. بيروت: مكتبة لبنان.
9. بن عثمان خوجة حمدان. (1982). المرأة: الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
10. بن يوسف القرمانى أحمد. (1992). أخبار الدول وآثار الاول في التاريخ (المجلد 3). بيروت: عالم الكتب.

11. جميل بيوض. (1991). تاريخ العرب الحديث . الاردن : دار الامل .
12. خالد الناصري ابو العباس احمد بن خالد. (1954). الاستقصاء لخبار دول المغرب الاقصى (المجلد 2). الدار البيضاء: دار الكتاب.
13. رضوان نبيل عبد الحي. (1986-1987). جهود العثمانيين لانقاذ الاندلس واسترداده في مطلع الحديث (اطروحة دكتوراه). كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، السعودية: جامعة ام القرى.
14. سينسر وليام. (2006). الجزائر في عهد ريااس البحر. الجزائر: دار القصة.
15. سعد الله أبو القاسم. (1990). ابحاث واءاء في تاريخ الجزائر (المجلد 2). بيروت: دار الغرب الاسلامي.
16. الشرفاوي عبد الله. (1996). تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين. القاهرة: مكتبة المديولي.
17. شوقي ضيف. (1995). عصر الدول والامارات الجزائر، المغرب الاقصى ، السودان . القاهرة : دار المعارف .
18. عادل سعيد بشتاوي. (2001). الاندلسيون المواركة . القاهرة : مطابع انتر ناسيونال.
19. عبد الحفيظ دحدح. (2014). الصدام العثماني الصفوي في تشالديران (الدوافع والاثار). دورية كان التاريخية (25).
20. عبد القادر فكايير. (2012). الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م). الجزائر : دار الهومة .
21. عزيز سامح ألتر. (1989). الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. بيروت: دار النهضة العربية.
22. علي ابراهيم درويش. (2013). السياسة والدين في مرحلة تأسيس الدولة الصفوية (1501-1576). بيروت: المركز العربي للابحاث والدراسات السياسية.
23. عمر الاسكندري ، و حسن سليم. (1996). تاريخ الفتح العثماني للشام الى قبل الوقت الحاضر. مديولي: تاريخ الفتح العثماني للشام الى قبل الوقت الحاضر.
24. القبرواني محمد بن ابي القاسم. (1286). المؤنس في اخبار افريقية وتونس . تونس : مطبعة الدولة التونسية .
25. كارل بروكلمان. (1968). تاريخ الشعوب الاسلامية. بيروت: دار العلم للملايين.
26. كمال السيد. (2005). نشوء الدولة الصفوية . ايران: دار باقيات.
27. كورين شوفالييه. (2007). الثلاثون سنة الاولى لقيام دولة مدينة 1510-1541م. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
28. مجهول. (2010). مذكرات خير الدين بربروس. الجزائر: شركة الاصاله للنشر والتوزيع.
29. المحامي فريد بك. (1981). تاريخ الدولة العلية العثمانية . بيروت: دار النفائس.
30. محمد سهيل طقوش. (1997). تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام (648-923 هـ/1250-1517م). بيروت: دار النفائس.
31. محمد سهيل طقوش. (2009). تاريخ الدولة الصفوية في ايران (907-1148هـ/1501-1736م). بيروت: دار النفائس.

32. محمد عبده حتامله. (1980). التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474-1516م). عمان : الجامعة الاردنية .
33. محمد ن يوسف الزباني. (2013). دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران. الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
34. مقلد الغنيمي عبد الفتاح. (1994). موسوعة المغرب العربي (المجلد مج.3، مج.5). القاهرة: مكتبة مدبولي.
35. المكي عبد الملك الشافعي العاصمي. (1998). سمط النجوم العوالي في ابناء الاوائل والتوالي (المجلد ج.4). بيروت: دار الكتب العلمية.
36. ناصر الدين سعيدوني. (2013). تاريخ الجزائر في العهد العثماني ويلييه ولايات المغرب العثمانية: الجزائر، تونس، طرابلس/غرب. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع .
37. هاني سلامة. (2001). تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان . مصر : مكتبة الثقافية الدينية .
38. الهلالي الميلي مبارك محمد. (1964). تاريخ الجزائر في القديم والحديث (المجلد ج.3). لبنان: مكتبة النهضة الجزائرية.
39. يلماز أوزتونا. (1988). تاريخ الدولة العثمانية (المجلد ج.1). اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل.